المحاضرة الرابعة عشر: الأسس المنهجية للوضعية ونتائجها على العلوم الإنسانية.

1-الأسس المنهجية للوضعية:

لقد قامت الوضعية على أسس منهجية وجعلتها مقياسا لكل تفكير علمي، ويلخص سان سيمون جوهر الفكرة الوضعية في قوله:" إن أكبر وأشرف وسيلة لدفع العلم نحو التقدم هو جعل العالم في إطار التجربة، ولا نقصد العالم الكبير وإنما هذا العالم الصغير يعني الإنسان الذي نستطيع إخضاعه للتجربة"[1]. هذه الفكرة التي عبر عنها سان سيمون في فجر النزعة الوضعية هي التي أثمرت مع جهود روادها، ولقد قامت الوضعي أصلا لمقاومة كل تفكير يخرج عن دائرة الحس أكان تفكيرا دينيا أو ميتافيزيقيا أو عقليا، فهي لا ترى المنطق السليم سوى في المعرفة الواقعية المنتزعة من الحس.

ومصطلح الوضعية نفسه الذي أطلقه كونت يدل على أن:

-أنّ كونت يريد اشباع الحاجات الواقعية للعقل البشري، وأن يقف عند هذه الحاجات فقط.

-أنّه لا يسمح كوسائل لهذا الاشباع إلا بالمعارف الواقعية أيضا أي المتصلة بالوقائع الحقيقية وفي الوقت نفسه في متناول العقل البشري.

-ويجب أنّ تتلاءم هذه المعارف مع حاجاتنا الواقعية، فالمنفعة والواقع اصطلاحات يستغرقان مضمون المصطلح المسمى "وضعي"[2].

فالواقعية هي السمة التي تميزت بها الوضعية واستعمالها كسلاح ايديولوجي ضد الفكر غير الواقعي أو الميتافيزيقي، ولذلك نجد أن الوضعية كانت أول ما تهدف إليه التخلي عن الأسباب المطلقة أو المبادئ التي تقوم عليها الفلسفة الميتافيزيقية. لذا كان المنهج الذي اتبعه كونت، فهو يسير من المحسوس إلى المحسوس لا من مبدأ مجرد وضع أوليا إلى نتائجه الجدلية، إنه لا يبدأ من المنطق وهو علم التصورات، بل من الرياضيات، وهي علم

[1]- محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مرجع سابق، ص50.

[2]- المرجع نفسه، ص50.

واقعي أصبح من الآن مقررا[1] **ويمكن أن نجمل الأسس المنهجية للوضعية في النقاط التالية:**

أ-اعتبار الإحساس وحده مصدرا للمعرفة الاجتماعية: ولقد عبر دوركايم عن ذلك في قوله: "إن العالم لا يستطيع أن يتحرر من الأفكار الشائعة، ومن الألفاظ التي تعبّر عن هذه المعاني إلا إذا جعل الإحساس هو المادة الأولية التي لا بدّ منها في نشأة كل معنى كلي"[2]، معنى ذلك أن الأساس الوحيد الذي تعتبره الوضعية هو تقدير الطبيعة(الواقع والحس) وتقييمها كمصدر للمعرفة.

ب-يتمثل الأساس الآخر في اتخاذها للعلوم الطبيعية مثالا ونموذجا: ترمي الوضعي إلى اتخاذ العلوم الطبيعية نموذجا لعلوم الإنسانية، وتحقيق نفس القدر من الموضوعية والعلمية في هذه العلوم، وذلك للابتعاد عن الأحكام القيمية التي تخضع لها. وهذا ما عبر عنه كونت: "إننا ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين. فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير"[3].

ج- **اخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب:** ضرورة اخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب، باعتبار هذه الأخيرة من مستلزمات النموذج الطبيعي. والهدف منه تحقيق العلمية في العلوم الانسانية، ولإقصاء التجريدات والتأملات، لاستبدالها بالملاحظة، وتسجيل الدقيق للوقائع. لكن المقصود بالتجربة ليس التجربة العلمية وإنّما التجربة الاجتماعية التي تقوم على المقارنة(تشابهها واختلافها).

د- شيئية الظواهر الاجتماعية: باعتبار أنّ الظواهر الاجتماعية جزء من العالم الموضوعي يجب ضرورة دراستها كما لو كانت أشياء، خارجة عن ذوات الأفراد وبمعزل عن

---

[1] - إميل بوترو، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1973، ص42.

[2] - محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مرجع سابق، ص51.

[3] - المرجع نفسه، ص52.

مظاهرها الفردية، وبوصفها تمارس قهرا عليه. يقول دوركايم في صدد ذلك:" إنّ الظواهر الاجتماعية "أشياء" ويجب أن تدرس على أنّها اشياء. وإذا اردنا البرهنة على صدق القضية فلسنا في حاجة إلى دراسة طبيعة هذه الظواهر دراسة فلسفية"[1] .

2/- نتائج تطبيق الأسس المنهجية للوضعية على العلوم الإنسانية:

يمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

أ-تضخم العقائد العلمية: أن الدعوة لتطبيق المنهج الوضعي المغاير نهائيا للأساليب اللاهوتية الميتافيزيقية، إعلان صريح لتجاوز حدود العلم إلى مجال العقائد، باعتبار أنّ العلم لم يعدّ مجرد أسلوب في البحث، وإنّما دعوة عقائدية ويقدم تصورا بديلا للكون، والإنسان عن التصور الميثولوجي.

ب-اختزال الحقيقة الاجتماعية في جوانبها المادية الواقعية: إن المنهج التجريبي المعتمد على الظواهر الاجتماعية سيقوم باختزال الجوانب الإنسانية في حدوده المادية الواقعية. كما أنّها تعطي للظواهر الاجتماعية دلالات واقعية وتستبعد كل العناصر الغيبية.

ج- إحلال النسبية محل المطلق في دراسة الظواهر الاجتماعية: لم تعد الوضعية تبحث عن العلل الأولى للظواهر لأنّه من سمات المنهج اللاهوتي، وإنّما البحث عن الأسباب المباشرة في خلق هذه الظواهر. فالمهمة الأساسية للوضعية حسب دوركايم هي: "أن تحلّ في كل شيء النسبي مكان المطلق"[2].

وفي الأخير، إن للوضعية أهميتها وتكمن قيمتها في تعزيز الايمان بقيمة المنهج العلمي والعلم بصفة عامة، وحث جهود البشر إلى اكتشاف أسرار الطبيعة الإنسانية، واجتناب النزعات الدينية، والأسطورية المتسلطة على أذهان الكثيرين.

---

[1]- محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، مرجع سابق، ص ص55-65.

[2]- المرجع نفسه، ص63.